مقياس: مدخل إلى فلسفة النقد.

محاضرة1

تمهيد في مفتاح المقياس:

يمثّل مجال النقد ميدانًا معرفيًا يقومُ على استهداف الإحاطة بظاهرة يتّجه العقل إلى إدراكها (فهمًا وتفسيرًا)، ولذلك فالنقدُ بصفة عامّة هو علاقة عقلية تنطلق من دوافع معرفية، نحو هدف تحصيلي؛ هو الوصول بالمعرفة العقلية المدرِكة للظاهرة وتفاصيلها.

وتمثّل الفلسفة مجالًا يقومُ على المحرّكات التي يصدرُ عنها نشاط المعرفة ومسارات التعقّل، حيثُ تمثّل الفلسفة مرجعية وخلفية يشكّلها البحثُ عبر السؤال، وينتظمها مسارُ تدويره وممكنات اشتقاقه.

وعلينا أنّ نميّز بين الفلسفة بعدِّها مجالَ تخصّص منهجي، في شكل ميدان معرفي مسمَّى في طبيعته المدرسية، ومحدّدا تعليميًا في بيداغوجيا تستهدف بناء منهجيات مكتسبة لدارس الفلسفة، وبين الفلسفة من حيث هي نشاطٌ وفعالية عقلية معرفية، يعبّر عنها فعلٌ أساسي يكونُ إنتاجُ السؤال وتفعيلُ طاقته، وهو ما يعني بهذا المفهوم أنّ الفلسفة بصيغة الفعل والمنجز هي نشاط مستمرٌ ومستغرقٌ للمعرفة، وليست نظام معرفة تلقينية تعليمية. وهو ما نفهمُ من خلاله أنّ إلحاق التفلسف بميدان من الميادين هو سؤال ذلك الميدان في أسسه المعرفية وهيئته المعقولة وآفاقه المتحركة ضمن مساراته الفكرية في المسافة بين واقعه وبين ممكناته، فقد استقرّ

في مجال العلوم والمعرفة صيغ الإضافة والإلحاق؛ الّتي تسمّي ذلك البعد لمجال من المجالات؛ فيما يتعلّق بمرجعياته وخلفياته وروحه التفكيرية الدافعة له، والناظمة لتوجّهاته، والمحدّدة لآفاقه الإنجازية، فحيثما كان السؤالُ بحمولته وطاقته وقوّته الدافعة معرفيا والمحرِّكة للعقل ومشروعه، فإنّ فعل التفلسف هو ما يحصلُ في ذلك المجال وممكناته، وهو ما يؤطّرُ حدود ابتكار العقل واختراقه للوقائع باتجاه الكشف والخلق والتعرّف والتجاوز.

إنّ القول بفلسفة ميدان أو مجال من المجالات، يعني بعبارة موجزة " **معرفة المعرفة**"؛ معرفة تحتية تتعلّق بمنطلقات ومثوّرات ودوافع ذلك الميدان، معرفة يعبّر عنها نظام التوليد المنتِج للسؤال ومساراته وآفاق التحامه بأجوبته الواقعة والممكنة. وقد سمّى العصرُ الحديث عديد المجالات التي ارتبط فيها العلم أو المعرفة بتفلسف صاغته معرفةٌ اتّجهت إلى تعرّفِ طبيعتها وواقعها وحركتها وروحها الفكرية، فثمّة ما يعرفُ بـ: **فلسفة العلوم، وفلسفة التّاريخ، وفلسفة الفن، وفلسفة الاقتصاد والسياسة. وحتى فسلفة الطّب والبيولولجيا وغيرها.** فمتى كان هناك اهتمامٌ وعناية بجوانب عميقة تتعلق بكوامن فكرية ومثوّرات معرفية، فإنّ التفلسف هو ما يعبّر عن تفكير عميق يقصدُ إلى تجاوز واجتياز المجال والميدان الظاهر والمادي والتقني من نشاط علم أو معرفة له تحقّق عمليٌ في هدفه الإنجازي، ويتّصلُ في بعد عميق بطاقات الفكر وسؤاله المنتج له.

يتحدّد هدف المعرفة بفلسفة مجال من المجالات أو ميدان من ميادين النشاط العلمي والمعرفي، بالبحث في إنتاجية Productivité السؤال؛ الّذي يأتي به التفكّر في ذلك العلم أو تلك

المعرفة، فمقصدُ التفلسف في ذلك يتجاوز الواقع العملي لذلك العلم أو تلك المعرفة، وبذلك نميّز بوضوح منهجي وبحدود فكرية بين الواقع المتحقّق المجسَّد والمنجز عمليًا (تطبيقيا) لعلم معين أو معرفة معينة، وبين الواقع المضمر والعميق لحركية السؤال وطاقاته وقوّته وفاعليته المتولّدة في بؤرة التفكّر الّتي تسبق ميدان التحقّق وأرضية ما ينجزه الواقع الممارساتي لنشاط من أنشطة العقل. وبهذا فإنّ فلسفة ميدان من الميادين ليست بحثًا في منجزات ذلك الميدان، بل هي بحثٌ في تتبّع واستقصاء مولّدات ذلك في بنية تحتية منتِجةٌ صانعة للأسئلة الدافعة لطاقات العقل كفاءته، فالمتفلسفُ في العلوم والمعارف ونشطات الإنسان المعقولة ومنجزاته المحقّقة، يعمل على ربط العلاقة بين نتائج ذلك النشاط الظاهرة وبين ما يكون قد برّرها وعلّلها وسبّبها في الطاقة الفكرية ومواطن إنتاجها للسؤال.

وهكذا فإنّ السؤال وحضوره العميق في بعث وانتظام نشاط العقل في ميدان العلوم والمعارف، هو المحور الذي يدور حوله فعل التفلسف في مقاربة ذلك النشاط، وهو ما يجعلُ من السؤال مركزًا وبؤرة فلسفةِ أيّ مجال، فإدراك السؤال وإحاطته هي الهدف والمشروع؛ الذي يخوضه أيّ تفلسف في معرفة المرجعيات والمقدّمات الفكرية لأيّ نشاط عاقل. وبهذا فالسؤال وحدةٌ إبستمولوجية/ معرفيةUnité épistémologique؛ ففلسفة الشيء بذلك هي إحصاء بنياته المعرفية في حصر وحدّ وفهم كونه الباعث على إنتاج حركته ومساراته المنتجة لما يكتشفه ويصنعه من واقع عملي ويجسّد الاكتشاف ويحقّق تطبيقات العقل.

فلسفة النقد: سؤال الماهية:

إنّ إطلاق مصطلح " نقد" بصيغة مفتوحة وغير مقيّدة، يعني مجالًا مفتوحًا في حدود العقل ومعقوله، فالنقد على العموم هو نشاط عقلي يتشكّل من مقدّمات ومبادىء، ويتّصلُ بأفق يقصدُ إلى معرفة مزدوجة بين الوصفُ والتقييّم والتقويم، لذلك فكلّ نقد هو علاقة عقلية بين ناقد/عاقل ومنقود/معقول يمثّل موضوعا له.

يوجد النقد بشكل ملازمٍ للعقل، إذ هو صفةٌ له، ومقوّمٌ من مقوّماته، ونتيجة من نتائج حضوره في حالة نشاطه، فكلّ عقل يفكرّ ويتفكّر فيما يقصدُه في علاقته بما يقعُ ضمن مجالاته، هو بالضرورة عقلٌ ناقدٌ وفاعلٌ بنشاط في تعقُّل وتعرُّف ما يستهدفه ويتّصلُ به من معقولاته، وهو ما يجعلُ من النقد نشاطًا مستمرًا للعقل، والنقدية صفة من صفاته الأساسية، يترجمها ما ينجزه العقل من توصيف (وصف) للظواهر والأشياء والأفكار التي يدخلُ معها في علاقة علم ومعرفة، وكذا ما يكشفه ويكتشفه منها، وما يقيّمه من هيئتها ووجودها وكينونتها وصفاتها وعلاقاتها، وكذلك ما يرصده من خلل فيها أو اختلال وما يبني عليه في ذلك تقويمه والإفصاح عن البدائل والممكنات في ذلك.

يعدُّ كلّ نقد بما هو نشاطٌ عقليٌّ، قراءة لواقع موجود معيّن معقول يحصّله العقل ويتعرّفه ويعلمُ كيفيات وجوده وصفاته، ويحيطُ بهيئته وخصائصه، ويصوّر أنموذجه الواقع ويستنتج نماذجه الممكنة، ولذلك فالنقد نشاطٌ عقلي يربطُ بين ما يقعُ وما يمكن أن يقعُ، كما هو طاقة عقلية راصدة لمسارات التحوّل والتغيّر والتبدّل الّتي يوجد الموجود المنقود ضمنها ويتحرك في مساقاتها، فما يمارسه العقل من نشاط النقد يعبّر عن وظيفتين أساسيتن هما:

وظيفة التصوير (الرسم): وهي وظيفة تحصيل واقع موضوع النقد ووصف كيف هو كائن، فحين يحدّد العقل ظاهر الموجود ويحيطه في صفاته وأوصافه، ويحصي مميزاته وخصائصه ويسجّل في الإدراك ما يكون عليه ذلك الموجود، فإنّه ينجز شقّ معرفة بالهيئة.

وظيفة التقويم: وهي العمل الذي يباشره العقل بعد أن يقيّم صورة الموجود وظاهره المدرك من هيئته، حيث ينتقل العقل في اتجاه تقويم الصورة المسجّلة عن ذلك الموجود، وهو ما يعبّر عنه في صيغة رصد الخلل والاختلال وإحصاء ما يمكن من نقصان ومخالفة في حدود الأنموذج، ممّا يؤشرُ على إنتاج البدائل واقتراح النماذج البديلة.

وهكذا فكلّ نقد يأتي من بحث أسئلة المرجعيات وتدويرها على أوجهها الممكنة، فمتى أدرك العقل أسئلة الموجود أمكنه تقيّيمها بعد وصفها، وأمكنه تقويمها ببحث صيغها، فالنقد نشاط مستمر واقعٌ في مجال العقل البشري وحدوده ودائمٌ في معقولاته من العلم والمعرفة ومجالاتهما.

محاضرة2

في النقد الأدبي:

يتحدّد مخصوص النقد حين إضافته إلى مجال معيّن، وذلك بتفرده بطبيعة ذلك المجال، فعلى سبيل المثال هناك النقد الفلسفي والنقد العلمي والنقد الفنّي وغيرها من مجالات هذا النشاط العقلي، ومن ضمن ذلك مجال النقد الأدبي، وهو ما يختصُّ بالأدب ومدونته وطبيعته وشؤونه، وهو ما يهتمُّ بتحصيل المعرفة التي يطلبُها عن الأدب وفيه، وما يبحثُه في صفات وجود الأدب وهيئته ومواصفاته وخصائصه ومقوّماته، وما يدركه في واقعه ونماذجه، وما يقيِّمه وما يقوِّمه من ممكناته وبدائله. وما يتتبعه ويستقصيه من تحوّلاته وتبدّلاته عبر ما ينمو فيه وما يطرأ عليه وما يتجدّد منه.

عطفًا على ما سبق ذكره وتقديمه، فإنّ سؤال ماهية النقد الأدبي، تقتضي السؤال عن طرفيه، حيث تستقيم وتتمّ علاقة اتّصالهما وما ينشأُ عنها من حاصل معرفة وعلم. وفي هذا وجب العلم بأنّ طرف النقد الفاعل هو العقل؛ من حيثُ هو الجهة المنتجة للمعرفة والمدركة للمعقولات، فالعقل هو الملكة التي تتلقى في قدرتها وكفاءتها ما يحصلُ من الأدب من حيث هو ظاهرة واقعة وموجودةٌ وحادثةٌ في التداول والتواصل، وأمّا الطرف الّذي يتّجه نحوه فعل العقل ويتّصلُ به تلقيًا وإدراكا ويدخلُ معه في علاقة تعرّفٍ وعلمٍ، فهو النّص الأدبي؛ الذي هو حدثُ الأدب ووحدته وأنموذج تحقّقه.

إنّ السؤال في ماهية النقد الأدبي، يأتي من السؤال عن ماهية الأدب ابتداءً، ذلك أنّ معرفة وحصر المجال الذّي يخوضُ النقد فيه، يحدّدُ معالم السؤال وآفاق حركته، ويعطي للنقد خصوصية ويقصره على الأدب دون خلطه بباقي الأنشطة الفنيّة للإنسان وتراكماتها. وفي

هذا يكون الأدبُ هو موضوعة التعقّل النقدي، ومادة اشتغال العقل النقدي الباحث في أسسه وخلفياته وصفاته وممكناته. فما هو الأدب ؟

في مجمل مفهوم الأدب وفي العبارة المختزلة له، هو ظاهرة ثقافية اجتماعية توجد في حياة الذات عبر تواصلها وتداولها للقول والكلام، وبذلك يكون الأدبُ بصفة عامّة وشاملة بنية من واقع ما ينتجه المتكلّم/المتكلّمون ويتبادلون عبره وجودهم وتفاعلهم، فهو الكلامُ الموصوف بالفنيّة والتميّز والجمالية، والمختلف بمخالفته ومفارقته للمستوى النفعي المباشر الواقع في التّداول اليومي لمجتمع ما. وبذلك يتّخذُ الأدب صفة التّميز والارتفاع عن اليومي ويصير إلى أنموذج من الكلام المتفوّق على الصيغ المباشرة. وعلينا أن ندرك أنّ كلّ النصوص المتميّزة والمخالفة بفنيّتها والمتفوّقة بجمالياتها هي مجموع المدوّنة المشكّلة لأدب ما في ثقافة ومجتمع معينين. فالنّص بهذا هو وحدةُ الأدب وأسُّهُ، وهو نواته ومادته المرجعية، ليصبح بذلك كلّ أدب محدد ومعيّن بمدونة النصوص التي تشكّله، ضمن ثقافة ومجتمع موجودان وجودًا تاريخيا.

يتحدّد الأدب بنصّه؛ الذي هو وحدته ونواته، ويشكّل ذلك الظاهرة الثقافية الأدبية بلغة معينة وفي حدود مجتمع تاريخي معيّن، ويتحدّد بذلك ميدان ومجال النقد الأدبي بأنّه تلك **العلاقة العقلية المعرفية الّتي يقصدُ بها العقل إلى علم ومعرفة بالنّص في هيئته ووجوده وصفته وسياقه وأنساقه ووظيفته وغاياته.** حيث ينتجُ النقد طرائق ويضع خططاً وبرامج، ويصنعُ أدوات ويبتكرُ إجراءات في سبيل جعل النّص حدثًا مدركا ومفهوما لدى ناقده.

فبوجود النّص وتحديده موضوعًا للسؤال النقدي يكون العقل قد شرع في مسار إنتاج معرفة نقدية تحصّل ناتج معرفة بالنّص المفرد داخل مدونة الأدب، ثم تتراكم المعرفة باستمرار مسار البحث والتعرّف والعلم بنماذج مختلف وتجارب متفاوتة، فيتشّكل النقد منظومة ونظاما للتعرّف النّصي ونسقًا فكريا إجرائيا مشروعه إحاطة النّص مظهرا ودلالة.

يمكننا إجمال العلاقة العقلية النقدية الأدبية في تعرّف النّص، كما هي قائمة في التجربة البشرية وحاصلها، وكما هي مسجّلة فيما أنتجه النشاط النقدي واستبقاه وراكمه، من خلال تبيّنها في مستويين أو محورين لتلك العلاقة، وذلك عبر استفهام طبيعة النقد الأدبي وسؤاله فيما حصل منه في علاقته ونتائجها بمنجزه، وما تفاعل به مع النّص الأدبي عبر ذاكرة راحت تتراكم وتتجدّد وتمتلك الوعي بتحوّلاتها وتبدّلات منظوراتها واستحداث أدواتها. فالنشاط النقدي الأدبي المستمر والمتحرّك يعيد أسئلته ويعاود التفكير فيها وبها في طلب النّص وطموح العلم به والمعرفة بعوالمه الفكرية والثقافية والاجتماعية والنفسية والتاريخية والرمزية والرّوحية والوجدانية وبجميع أبعاده الممكنة وآفاقه المحتملة. غير أنّه يمكننا حصر المعرفة النقدية الأدبية في علاقتها بالنّص الأدبي في محورين رئيسين أو مستويين يشكّلان مجاليه المتلازمين وهما:

التفسير: والذي هو عملية نقدية تتجه إلى مظهر النّص في بنيته وضوابطه وهيئته الكلامية؛ الّتي هي ما يتحقّق في قانون استعمال الكلام في لفظه وجمله وتراكيبه، وما يمثّله في ذلك الشرط الهندسي المادي المحدّد لمظهر النّص كلامًا. ولذلك يتأسس النقد معرفةً في هذا المحور

وهذا المستوى في أسئلة الكيفيات والصّفات والأوصاف وتعديدها، ثمّ تجريد أنماطها وقانونها فيما يكون عليه النّص في استيفائه لها وتحقيق الكلام بمنوالها.

الفهم: وهو المحور الّذي يأتي من تمام هيئة النّص، حيث يكتملُ كلّ نصّ في بنيته ومظهره لأجل أن يقول ويعلن عن دلالة محكومة بالقصد والإرادة المتعلقتان بالمتكلّم بالنّص، فالنقد في مجال سؤاله عن محمولات النّص الدلالية، يبحثُ عمّا يريده النّاص (المتكلم/المنتج للنص) من حدث الدّلالة لدى متلقيه/القارىء، فكلّ ما يتعلق بما يحمله نظامُ الكلام ضمن علاماته التي يشكّلها النّاص، يدخلُ في اهتمام تنزيل الدلالة من الكلام (النّص)، فالفهم هو طاقة السؤال التي تستولد المعنى وتأوّله عبر دفع التلقي في مسار يبني صلة المتلقي بما أراده وقصد إليه المتكلم بالنص (الناص).